الدعوة لإعادة معمودية الكاثوليك

خلافُ محبةٍ، أم خوفٌ وكراهية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

تذكرت قول شاعر النيل حافظ إبراهيم وهو يحث أقطاب الأحزاب التي تفرعت عن حزب الوفد بأن يتوحدوا من أجل مصر:

إلاما الخلَف بينكما إلاما

وهذه الضجة الكبرى علاما

تدخل الكنيسة المصرية عصر الاستشهاد من جديد، ولا تزال آثار العدوان على ثلاث كنائس في فترة زمنية قصيرة — البطرسية — مار جرجس طنطا — المرقسية بالإسكندرية ظاهرة لمن يريد أن يراها.

ويبدو أن أساقفتنا الأجلاء الذين وجدوا في الإعلام فرصة الظهور، لم يسمعوا تهديد داعش الذي يدوّي في العالم كله. فبعد أن تم إخلاء العراق وسوريا وتدمير الكنائس في العراق وسوريا والقضاء على كل تراث مسيحي كان له وجود قبل الإسلام، جاء دور الأقباط الذين يقفون مع القوات المسلحة والشرطة المدنية صفاً واحداً من أجل مصر. وسقوط شهداء مصر من أجل بقاء الدولة المصرية أمرٌ لا يمكن اعتباره حادثاً عابراً، خصوصاً وأنه لا يمضي أسبوعٌ إلا وتنشر وزارة الداخلية ما تم العثور عليه من أسلحة ومتفجرات شاهدها أغلب المصريون، أسلحة خاصة بجيوش وليست جماعات مسلحة فقط .. وبدلاً من أن يسعى الأساقفة الأجلاء إلى خدمةٍ أوفر ونشاطٍ أكثر في الصلاة والتعليم .. تخرج علينا فتاوى، نعم فتاوى بلا مرجعية تاريخية وبلا قانون كنسي أو حتى وثيقة واحدة تسندها.

سيدنا أنبا أغاثون يقول إن المجمع المقدس هو أعلى سلطة في الكنيسة. هذه فتوى بلا سند تاريخي. هل كان المجمع المقدس حاضراً في المجامع المسكونية الثلاث: نيقية — القسطنطينية — أفسس؟ وهل فوّض الأساقفة، القديس كيرلس الكبير في ٣٤١ في

اتخاذ قرار ضد بطريرك العاصمة القسطنطينية؟

يا سيدنا الكريم دعنا نطرح عليكم سؤالاً: ما هي دلالة القانون السادس من قوانين مجمع نيقية المسكوني ٣٢٥ الذي ينص على: "لنحفظ العادات القديمة في مصر والمدن الخمس في أن لأسقف الإسكندرية الرئاسة عليها كلها، على مثال ما هي العادة من جهة أسقف روما أيضاً" (راجع مجموعة الشرع الكنسي – منشورات النور – ١٩٩٨ ص ٥٦).

ولم يكن اللقاء التاريخي هو اللقاء الذي تم بين البابا شنودة الثالث والبابا يوحنا بولس الثاني، بل كان اللقاءُ التاريخي بكل معنى الكلمة هو اللقاء الذي تم في عام ١٩٧٣ والذي رحَّب فيه الرجل العظيم، البابا بولس السادس بالأنبا شنودة وبالأساقفة الذين كانوا بصحبته، وأكرم كل الوافدين بكل ترحاب وكرم، ولم نكن حينئذٍ هراطقة، بل أجلس أسقف الإسكندرية عند مذبح القديس بطرس في الكاتدرائية أمام العالم كله لكي يلقي كلمةً، ثم صلى الوفد القبطي في كنيسة القديس أثناسيوس في روما، ومن ثمَّ صدر البيان المشترك الذي تعمد الأنبا بيشوي عدم نشره على موقعه، ونُشر على موقع الدراسات القبطية.

وتمر الأيام، وعوضاً عن أن تتقدم العلاقات، إذ بها تتراجع!!!

الكنيسة الشرقية التي ذُبحت:

وكما ادعى عابدوا الكراهية أننا مونوفيزيون وأوطاخيون، كذلك ادعى عابدوا الكراهية لدينا أن سريان المشرق نساطرة. السبب الأول هو رفض حرمان نسطور لأنه ظُلِم، ولأنه اعترف في آخر جلسات مجمع أفسس ٣٤١ بلقب والدة الإله، وإن كانت رسائله الأولى السابقة على انعقاد المجمع هي السبب في الشك في صدق اعترافه. وهكذا خرجت الكنيسة الشرقية لكي تُذبح على يد الفرس، بل هاجر بعضهم إلى الصين ونشروا المسيحية، ولا تزال مقابر هؤلاء وعليها شواهد مدونة بالسريانية والصينية.

وذُبِحَ ما تبقى منهم على يد الأتراك العثمانيين بعد أن اشـــتعلت الحرب العالمية الأولى مع الأرمن، وهـاجر عـددٌ منهم إلى العراق وألمـانيا وأمريكـا .. وقد حـاول علمـاء التاريخ من الكنيسـة المارونية اقناع الأنبا بيشـوي بأن السـريان المشـارقة ليسـوا نسـاطرة، ولكن مطران دمياط يسـير على قاعدة "خالف تُعرف"، وهكذا أغلق باب اشـتراكهم في مجلس كنائس الشـرق الأوسـط، ولم يكتف بذلك، بل تلاســن المطران مع العالم والمؤرخ الكاثوليكي الأب د. هاللي في فيينا وشـتمه (حسـب رواية الأب د. هاللي)؛ لأن العالم الكاثوليكي رفض أن يقول إن السـريان المشـارقة هم نسـاطرة؛ لأنه أصـلاً لم تكن هناك كنيسـة نسـطورية – وكان علماء العصـر الوسـيط من الأقباط أكثر صـدقاً وأكثر معرفةً وانفتاحاً، عندما نشروا شرح الأناجيل الأربعة للعالم السرياني ابن الطيب (نسطوري) باسم "تفسـير المشـرقي"، بل كانت كتابات اسـحق السـرياني المتهم بالنسـطورية، وكذلك يوحنا الشـيخ الروحاني المتهم أيضـاً بالنسـطورية من أهم الكتب التي تكوِّن الحياة النسـكية في أديرة مصر الأرثوذكسية، ناهيك عن كتاب يوحنا الدرجي (الخلقيدوني).

مَن يحيا في الماضي، يفقد الحاضر:

تلك حكمةٌ مصـــريةٌ قديمة؛ لأن دفاتر التاريخ القديم إذا انعدمت فيها شـــهادة المحبة وأخذناها بلا فحص وبلا تدقيق، حكمنا على أنفسـنا بأننا نحيا في سـجن الماضـي بلا تمييز، وبأننا وضعنا أنفسنا خلف قضبان الخوف والكراهية .. هذه حقيقة.

يجب أن يكون لدينا الإيمان والمحبة؛ لأن الإيمان بلا محبة باطل؛ لأن الله محبة، وتلك حقيقة الحقائق.

القرن الرابع وما بعده:

كانت الأريوسـية أكبر محنة مرت بها الكنيسـة في بداية القرن الرابع، واشـتدت قوتها في القرن الخامس لأنها تحصنت بقوة الإمبراطور وكادت تحطم الكنائس الشرقية.

بسبب هذه البدعة عُقد أول مجمع مسكوني في ٣٢٥. ويبدو أن الأريوسيين انشأوا كنائس موازية في بعض بلاد الشرق.

كانت الأريوسية تنكر وحدة جوهر الثالوث وتعتبر الابن مخلوقاً. وكان القديس أثناسيوس في المقال الثاني في الرد على الأريوسيين يذكر بكل وضوح أنه: "عندما تُعطى المعمودية، فإن الآب هو الذي يُعمِّد، والابن هو الذي يُعمِّد، ومَن يعمِّده الابن تقدَّس بالروح القدس ... لأنه حيث يدعى اسم الآب، فالابن كذلك دُعِيَ. وحيث أن الآب يسمى في المعمودية، إذن الابن يُسمَّى معه أيضاً" (٢: ٤١). إذن، القاعدة الرسولية هي صحة الإيمان، لا سيما وصية الرب نفسه عن التعميد باسم الثالوث (متى ٢٨: ١٩).

ما هو وضع معمودية الأريوسيين؟ يكتب المعلم السكندري: "وتبعاً لما نعرف فإن المياه التي يخدمون بها هي بلا فائدة والسبب هو أن النعمة تعطى من الآب بالابن (٢: ٤٢). ولذلك: "هؤلاء الأريوسيون فإنهم يخاطرون بفقدان إتمام المعمودية، لأنه إن كان إتمام السر يُعطى باسم الآب والابن، وهم لا يعترفون بأنه الآب الحقيقي لأنهم ينكرون (الابن) الذي منه (الآب) والذي هو من ذات جوهره .. ألا يكون طقس المعمودية الذي يتمونه فارغاً وعديم الجدوى، إذ أن له المظهر الخارجي (الصلوات) أما في الحقيقة فإنه ليس فيه شيء يعطي حياة تقوى؟ لأن الأريوسيين لا يعمِّدون باسم الآب والابن، بل باسم خالقٍ ومخلوق" (٢: ٤٢ راجع ص ٦٨-٦٩ الترجمة العربية مركز الآباء بالقاهرة — ١٩٨٧).

وعدم صحة المعمودية، يذكره القديس أثناسيوس نفس الفقرة السابقة: "ليس كل مَن يقول "يا رب" هو الذي يعطي المعمودية، بل هو ذلك الذي مع الاسم الذي يدعوه، له إيمان مستقيم. لهذا السبب، فإن المخلص لم يأمر فقط بالمعمودية، بل قال أولاً "تلمذوا" ثم بعد ذلك قال: عمِّدهم باسم الآب والابن والروح القدس لكي يأتي الإيمان المستقيم من التعليم، ومع الإيمان يأتي إتمام المعمودية" (٢: ٤٢).

الإيمان بالثالوث:

في الرسالة الأولى إلى سرابيون عن الروح القدس فقرة ٣٠ يقول القديس أثناسيوس: "إن الإيمان بالثالوث هو إيمان: "بقداسة واحدة – أبدية واحدة"؛ "لأن هذا الإيمان بالثالوث – المسلَّم إلينا – يجعلنا مُتَّحدين بالله". ولذلك، الذي يحذف أي أقنوم من أقانيم الثالوث ويعمد باسم الآب وحده أو باسم الابن وحده، أو باسم الروح، أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس؛ لا ينال شيئاً .. لأن طقس الكمال (الانضمام إلى الكنيسة) هو بالثالوث (راجع الترجمة العربية ص ٨٥ – ٨٦).

ومن له الآب له الابن، وهنا نجد ذلك الاعتراف الضروري بالثالوث: "المعمودية التي تعطى بالآب والابن والروح هي واحدة (ص ٨٦).

وقد ذكر روفينوس في تاريخ الكنيسة (١٠: ١٥) كيف قام أثناسيوس بدور الأسقف وهو شاب صغير، وقام بتعميد الأطفال في البحر. وعندما امتحن البابا السكندري صحة الطقس وصحة التعليم، قَبِلَ هذه المعمودية.

وقد عثر الأب متى المسكين على مخطوطة قديمة، باللغة العربية تفيد بأن والد القديس كان قساً وأن اثناسيوس نشأ في بيت مسيحي لقس أُرثوذكسي واتقن الطقوس والتعليم منذ صغره (راجع كتابه: القديس أثناسيوس الرسولي، البابا العشرون).

هنا، معمودية الشاب أثناسيوس كانت معمودية تامة، إذ أكمل الأسقف الرشم بالميرون بعد ذلك .. وهي لا تختلف عن القصة التي وردت في كتاب السنكسار عن امرأة عمَّدت طفلها بالدم خوفاً من الغرق، ولما جاءت إلى الاسكندرية لكي تعمد فلذة كبدها تجمَّدت مياه المعمودية، واعتبرت معموديتها صحيحة. هذه ليست مما يقال له: "استثناء"، بل في ضوء ما ذكره القديس أثناسيوس، فإن ذِكر واستدعاء اسم الثالوث يكفي، وهنا في كلتا الحادثتين لم يرد ذكر للخلافة الرسولية.

المجمع المسكوني الثاني ٣٨١:

كانت إعادة معمودية الأريوسيين ضرورية حسبما ذكر القديس أثناسيوس. ولكن جاء القانون السابع من قوانين المجمع يؤكد عكس ما ذكره البابا أثناسيوس الرسولي: "كل مَن يرتد عن البدعة إلى الإيمان القويم وإلى نصيب الذين نالوا الخلاص نقبله حسب الطقس: إن الأريوسيين وأتباع مكدونيوس وأتباع نوفاتيان الذين يدعون أنفسهم "أنقياء" .. نقبلهم بعد أن يعلنوا جميعاً رفضهم ضلالتهم وأنها بدعة لا تتفق مع تعليم كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية. وبعد ذلك (بعد تقديم الاعتراف المكتوب) يختمون بالزيت المقدس (الميرون) على جباههم وعيونهم وأُنوفهم وأفواههم وآذانهم وعندما نثبِّتهم نقول: "ختم موهبة الروح القدس" (راجع الشرع الكنسي – منشورات النور – ١٩٩٨ – ص٢٧٩).

وقد فَصَلَ القانون السابع بين الأريوسيين والمكدونيين الذين أنكروا أُلوهية الروح القدس، والنوفاتيين وهم اتباع القس نوفاتيان الذي انشق على كنيسة روما؛ لأنهم يقبلون التائبين العائدين إلى الكنيسة، ولذلك دُعُوا: "الأنقياء"، –وهو اسمٌ أُطلِقَ عليهم من قبيل السخرية والتهكم– عن باقي الهراطقة الذين ذكرهم القانون، وهم أتباع مونتانوس – أتباع سابليوس لأنهم أنكروا الثالوث. ولكن انكار الثالوث كان أيضاً "وصمة" الأريوسية والمكدونية.

ومن الإجابات القانونية الثانية للبابا تيموثاوس السكندري ندرك أن اهتمام الكنيسة في المجمع الثاني ٣٨١ كان إعادة الوحدة إلى الكنيسة، ورغم التساهل الواضح مع الأريوسيين بالذات، إلا أن قبول عطية الروح القدس برشم الميرون، أي المسحة الإلهية، كانت كافية.

كذلك نرى في خطاب ديونيسيوس بابا الإسكندرية إلى البابا سيكستوس الثاني Sixtus أن شخصاً (لم يذكر أسقف الإسكندرية اسمه) كان يحضر خدمة الليتورجية،

ولكن عندما حضـر خدمة المعمودية وسمع الأسـئلة والاجابات، جاء إلى أسـقفه يبكي؛ لأنه نال معموديةً بواسـطة هراطقة، ولم يكن فيها -أي في معموديته- ما يشـبه معمودية الكنيسـة (لم يذكر الأسـقف اسـم الهرطقة)، وطلب هذا الشـخص أن يُعمَّد من جديد، ولكن ديونسـيوس رفض؛ لأن هذا الشـخص كان قد سـبق له الاشـتراك في القداسـات، وقال: "آمين" عند الشـكر، بل شـجَّعه البابا ديونسـيوس على أن يسـتمر في الشـركة في الجسد والدم بإيمان ورجاء صالح. ولكن هذا الشخص كان لا زال متردداً في الاقتراب من مائدة الرب" (تاريخ الكنيسة يوسابيوس القيصري ٧: ٩-١-٥).

وهنا نرى أن ما يُوهَب هو الاتحاد بالرب. وعدم فهم هذا الشخص، لم يمنعه من التناول من المائدة الإلهية. واعتبار هذا كافياً، يجعلنا قادرين أن نقول في ضـوء ما سـبق إن قبول الأشخاص هو الغاية الأعظم، وأن الحرص عليهم هدفٌ لا يمكن التخلي عنه.

كـان الخلاف بين الكنيســـة والهراطقة هو خلافٌ حول إيمان هؤلاء بعقيدة الثالوث، وعلى الرغم من ذلك جاء قرار المجمع المسـكوني في القانون السـابع مخالفاً تماماً لِما ذكره أثناســيوس الرســولي عن عدم جدوى معمودية الأريوســيين. لكن جاء تدبير الكنيسـة بحلّ آخر، وهو الرسـالة القانونية الأولى إلى امفلوخيوس وهي رقم ١٨٨ للقديس باسيليوس:

"بخصـوص سؤالك عن النوفاتين (الأنقياء) Cathari فقد صـدر قرار بخصـوصـهم، وقد ذكَّرتني أنه من الواجب اتباع العادة السـائدة في كل مكان لأن هناك اختلافٌ في القرار. معمودية المونتـانيين ليس لها قـانونيـة، وأنـا منـدهشٌ، كيف غـاب هـذا عن ديونســيوس، وهو يعرف القوانين. القاعدة القديمة هي أن نقبل معمودية مَن لم يخرج عن الإيمان. وحســب هذه القاعدة لدينا أسماء: هراطقة — منشــقين — واجتماعات غير قانونية. أما الهراطقة، فهم الذين كسـروا (الشـركة) وصـاروا غرباء عن الإيمان ذاته. أما المنشقون فهم الذين انفصلوا عن الكنيسة لأسباب وقضايا يمكن حلها. أما الاجتماعات غير القانونية، فهي التي يجمع فيها قس أو أسقف أو علماني غير متعلم.

وعلى سبيل المثال إذا ارتكب شخصٌ ما جريمةً وثبت جرمه، ومُنِعَ من الخدمة ورفض الخضوع للقوانين، وأعطى لنفسه واجبات الأسقف، ثم ترك شخصٌ الكنيسة الجامعة وانضم إليه (أي إلى هذا الاجتماع غير القانوني)، مثل هذا اجتماع غير قانوني.

أما عدم اتفاق أعضاء الكنيسة حول قبول توبة أي إنسان، فهذا انشقاق.

أما أمثلة الهرطقة، فهي: المانوية – اتباع فالانتيوس وماركيون والمونتانين لأنهم اختلفوا معنا في الإيمان بالله، الذي هو حسب الإيمان القويم.

وكان حسناً أن السلطات الكنسية القديمة رفضت معمودية هؤلاء، وقبلت معمودية المنشقين على أساس أنهم أصلاً من الكنيسة".

وبعد ذلك يذكر القديس باسيليوس تاريخ بعض الهرطقات الذين انكروا الثالوث. ولأن القديس باسيليوس رقد في الرب في ٣٧٩ فهو لم يحضر المجمع الثاني ٣٨١ الذي حضره القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات.

عرضٌ وتقييم:

في عام ١٩٨٢ صدر من مجلس كنائس العالمي وثيقة عُرِفَت باسم وثيقة ليما Lima بعنوان: "معمودية، إفخارستيا وخدمة"، وهي النشرة رقم ١١١ عن لجنة الإيمان والنظام. وقد نشرتُ دراسةً قُدِّمَت لقداسة البابا شنودة ولنيافة الأنبا غريغوريوس – باسم مجلس كنائس الشرق الأوسط، ولم أجد رداً من أحد، ولا حتى من إخوتنا الكاثوليك والإنجيليين، وكانت الدراسة تدور حول القانون السابع من قوانين المجمع المسكوني الثاني والرسالة القانونية الأولى للقديس باسيليوس، وتطلب عدم إعادة معمودية الكاثوليك لأنهم إيمانهم الرسولي واحد. ثم جاءت العواصف التي يعرفها معظم القراء وضاعت الدراسة في ضوضاء إثارة موضوع التألُّه، ولم يطبع مجلس كنائس الشرق الأوسط البحث، بحجة أنني تركت الخدمة، وذلك تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه بين الأستاذ جابي حبيب والأنبا

شنودة الثالث على عدم التعاون معي لكي أترك العمل .. سبق هذا بحثٌ عن قدسية زواج الكاثوليك والإنجيليين، حوكمت بسببه في دير الأنبا بيشوي، ولم يصدر بشأنه قرارٌ ضدي سوى منعي من التدريس، لا من التناول أو الخدمة، وعدت بعدها إلى التدريس بعد أن دبَّ الخلاف بين الأنبا شنودة وبين أستاذنا الأنبا غريغوريوس.

والآن، بعد زيارة البابا فرنسيس، لماذا لا نقبل الكاثوليك برشم الميرون، هذا إذا كانوا لم يحصلوا على سر المسحة في الكنيسة الكاثوليكية؛ لأن هؤلاء هم أخوة لنا في الإيمان. وباب الرد مفتوح على أساسٍ من التاريخ، وبالوثائق.

د. جورج حبيب بباوي